

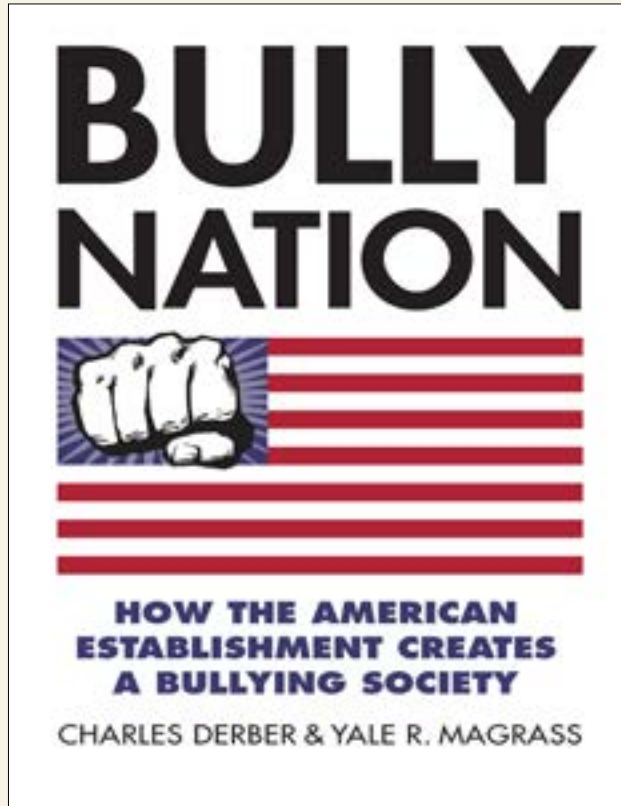
علم اجتماع

هكذا تصنع أميركا مجتمعاً متنمراً!

التي تقع ضمن سلسلة القيادة. ومع أن الاشتراك فيها طوعي، إلا أن بعض الطلاب يخضعون لتنمر إدارة المدرسة التي تحاول إجبارهم على الالتحاق بها. أعفى طالب من الانخراط في البرنامج بعدما قامت لجنة الدفاع عن الحريات المدنية (civil liberties union) برفع دعوى قضائية على المدرسة.

النظم الاتحادية تعترف هذه البرامج بأنها تمكن الكوادر من خدمة وطنهم على نحو أفضل بصفة قادة ومواطنين وعسكريين. الهدف - بحسب الكاتبين - خلق أجواء إيجابية تجاه الخدمة العسكرية. هنا يستدعي الكاتبان مثال جندي أميركي في فييتنام بعث رسالة إلى مدرسته قبل انطلاقه في غارة جوية على فييتنام الشمالية، قال فيها، ضمن أمور أخرى، إنه يشكر إدارة المدرسة على القيم التي تعلمها فيها، وطلب عدم الحداد عليه في حال سقوطه لأنه جسد ينفذ مهمته وليس أكثر من ذلك!

كما ينتقل المؤلفان من تنمر واشنطن إلى تنمر دول أخرى حيث يخص السعودية وفكرها الوهابي التكفيري، وكيان العدو الصهيوني بالذكر. الكتاب يأخذ القارئ في رحلة مختصرة عبر نصوص توراتية تتحدث عن حنين يهودا لتأسيس إمبراطورية متنمرة تحظى برضى إله التوراة يهوه، تماماً كما فعلت البركيستان البائدة. فمعنى قول «العهد القديم» أن يهوه جعل من بني إسرائيل شعبه المختار أنه منحهم حق التنمر على شعوب المنطقة، فبارك قيامهم بقتل العماليق، رجالاً ونساءً وأطفالاً ورُضعاً، ومواشيهم وأحل لهم رجم الزانية وقتل المثليين وكل امرأة لم تكن عذراء عند زواجها. إله التوراة . يقول الكاتبان - مثل المدرسة، لا يقبل أي تسامح في موضوع الخضوع غير المشروط لقيمه أو حتى مناقشتها.



إعداد أيد عاملة في خدمة راس المال المتعسكر الذي يمارس التنمر

من الأمثلة التي يستعين بها الكتاب دعماً لرأيه عن التنمير، الملطف، في المدرسة مرتبط بما يسمى «فرق تدريب القادة الاحتياط الصغار» junior reserve officer training corps، jrotc. ثمة ثلاثة آلاف من هذه الفرق،

الطلاب وفرض قبولهم بالقيم التي يلقتهم إياها، ولا يقبل أي اعتراض أو انحراف عن ذلك. وإدارة المدرسة لا تقبل ذلك، ولا النظام القائم بقبول به. على المتلقين قبول القيم التي تلقن لهم والدفاع عنها.

كلنا نعرف معنى التنمر الذي يمارسه البعض، الأقوى تجاه الأضعف. عايشناه في المدرسة تلاميذ وطلاباً. ضحايا تنمر طلاب، وطلاب ضحايا تنمر أساتذة، ونعلم أيضاً أن بعض الأساتذة عانوا تنمر إدارات المدارس. التنمر موجود في كل مكان وفي كل زوايا المجتمع مهما كان شكلها. في المدرسة وفي الجامعة، وفي الشارع، وفي مختلف النشاطات الاجتماعية. التنمر موجود حيث توجد سلطة.

التنمر هو من صفات الطرف الأقوى وممارسة تجاه الطرف الأضعف. الأمر ليس متعلقاً بممارسات شخصية فقط، وإنما بممارسات جامعة. وبما أن التنمر موجود حيث ثمة سلطة، فيمكن القول إن التنمر موجود في عالمنا منذ أقدم العصور. نعثر عليه في الإمبراطوريات القديمة مثل البابلية والآشورية والفارسية والرومانية والإغريقية، وغيرها.

لكن كتاب «أمة متنمرة: المؤسسة الأميركية تخلق مجتمعاً متنمراً» (منشورات «جامعة كنساس» 2016) يتحدث عن العصر الحالي، انطلاقاً من أرضية علمية تناقش التنمر لا كمادة مرتبطة بعلم النفس، وإنما من منظور اجتماعي. فالتنمر، حالة اجتماعية تدعى التفوق على الآخر، وتتطلب بالتالي خضوع الضحايا للمتتمر وقبول تفوقه وشرعيته. هذه مقاربة جديدة طرحها المؤلفان تشارلز دربر، ويل مغراس باسم «الخيال الاجتماعي» (sociological imagination) الذي يربط المشاكل الخاصة بالقضايا العامة.

بالتالي، فإن التنمر مشكلة بنوية مرتبطة بهرمية السلطة ومنظمة حولها، دوماً بحسب الكاتبين، وهما أسنانان متخصصان في مادة السوسولوجيا ويدرسانها في جامعات أميركية.

حقوق الإنسان

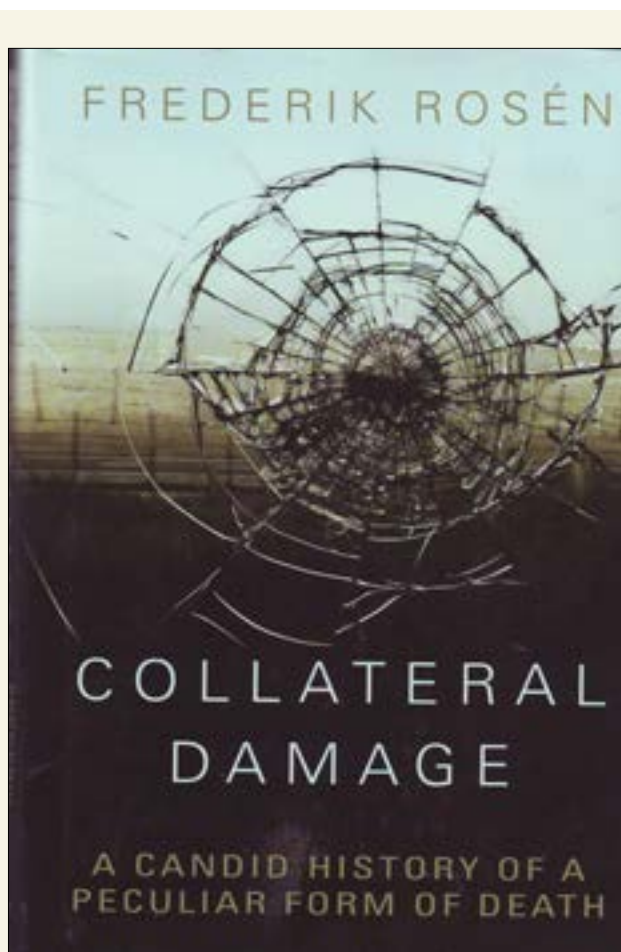
«الأذى الجانبي» أو كيف نشرعن القتل

فتعريف الأذى العرضي وشرحه وتسويغه يعني بالضرورة الإجابة عن السؤال: من يحكم العالم؟ المقصود هنا - يضيف الكاتب - ليس الملوك أو الرؤساء أو الأباطرة، وغيرهم، وإنما بالعلاقة مع شكل شرعي للحكم وما الذي يشرعن القيام بأعمال عسكرية بهدف خلق عالم جديد أفضل.

يلاحظ الكاتب أن طرفين فقط ادعيا امتلاكهما شرعية إلحاق الأذى بالبشر وقتلهم وتدمير ممتلكاتهم، عبر حروب هدفها، وفق ادعاءاتهما، تأسيس عالم جديد أفضل من القائم، الطرفان هما الدولة المركزية الحديثة وأولئك الذي عينوا أنفسهم ناطقين باسم الخالق.

يقول الكاتب إنه في خضم البحث عن إجابات عن الأسئلة ذات العلاقة، فإنه يأخذ في الاعتبار جسد كل طفل مجهول قتلته قنابل المسيرات. كما يناقش كافة الذرائع المدافعة عن الأذى العرضي وتلك التي تهاجمه. هنا يتم البحث في مختلف المعايير التي يجلبها كل طرف دعماً لرأيه وموقفه، ونشرحها من مختلف النواحي الأخلاقية والسياسية والفلسفية واللاهوتية.

ويخلص المؤلف إلى أن الأذى العرضي المعتوق من المسؤولية ليس حقاً مكتسباً، وإنما ادعاء مختلق تمنحه لأنفسنا. ومع أن الأذى العرضي قد ترسخ في الممارسات والاتفاقات الدولية، إلا أنه يبقى محاولة عقلنة واحتواء وتهديئة تصرف خاطئ وإثم وخطيئة وخطأ وشرير ولا أخلاقي. أخيراً، يقارب الكاتب المشكلات المرتبطة بالأذى العرضي من منطلقات قانونية ولاهوتية وفلسفية.



مقاربة الموضوع من منطلقات قانونية ولاهوتية وفلسفية

القانونية، الأذى العرضي ومسألة التعويض، إزالة الضباب المحيط بالحرب والأذى العرضي، كيف يمكن للأمر السيئ أن يكون جيداً، موت من دون توضيحات، أذى عرضي أم حادث؟ نداء شخصي للأذى العرضي؟ بمركز أو من دون مركز، مكان بينهم جميعاً. يقول الكاتب إن هناك مازقاً أو مشكلة عند الحديث عن قتل الأشخاص «الذين ندعي أننا أتينا للدفاع عنهم وإنقاذهم»، وهو ما يتجلى في ما يسمى عمليات حفظ السلام التي تقرها الأمم المتحدة حيث يقال إن هدفها حماية المدنيين.

لكن الحديث في موضوع الأذى العرضي محدود، دوماً بحسب الكاتب، إذ يتركز على حقوق المنتهكين أو المعتدين ومآلاتهم، ونادراً ما يهتم بمسألة معاناة الضحايا وأثار قتل المدنيين على كافة الصعد.

بكلمات أخرى، نحن نهتم بالمشكلة، أي بالأذى العرضي، لكن ليس بضحاياها، وهذا الإشكال أو هذه المفارقة هي سبب نشوء هذا المؤلف، طبعاً بكلمات الكاتب. ثمة مسائل فلسفية مرتبطة بموضوع المؤلف. هو يطرح أسئلة ذات إجابات معقدة ومنها على سبيل الذكر: لماذا يصعب علينا بما لا يقاس عد قتل الأطفال أذى عرضياً؟ ومن الأسئلة الفلسفية الأخرى التي يطرحها الكاتب: ما طبيعة الادعاء بقانونية [ارتكاب] الأذى العرضي؟ من الطرف الذي يحق له الفصل في الأذى العرضي؟ يضيف الكاتب إن مشكلة الأذى العرضي تفتح أبواباً تقود مباشرة إلى علم اللاهوت والنظرية السياسية.

اخترنا كتاب «أذى جانبي - تاريخ شكل عجيب من الموت» (C Hurst & Co Publishers Ltd) بسبب راهنية الموضوع، إذ نرى أن ما يسمى الأذى الجانبي أو الأذى العرضي، كثيراً ما تستخدمه الدول لتسويغ إخفاقاتها الاستخباراتية. فالحملات العسكرية الأخيرة في سوريا والعراق واليمن وليبيا وغيرها، قادت إلى خسائر هائلة بين صفوف المدنيين الذين ليس لهم علاقة مباشرة بالصراع، وهم ليسوا منخرطين فيه مادياً. لكن وجب عدم نسيان الخسائر المادية كذلك.

لكن هل يمكن توصيف الجرائم الإرهابية التي تؤدي إلى خسائر بين صفوف المدنيين، على أنها أذى عرضي؟ مختلف تلك الجرائم، سواء ارتكبتها المؤسسات الرسمية في الدول مباشرة أو عبر مرتزقة، أو تلك العائدة للتنظيمات الإجرامية الإرهابية، في حاجة إلى بحث مستفيض، وهذا ما قام به الكاتب فردرك رُزن، الباحث في «المعهد الديمقراطي للدراسات الدولية».

ثمة أعمال إرهابية لا تدخل جرائمها تحت هذا المصطلح، ذلك أن هدفها إلحاق أكبر أذى بمدنيين لا علاقة لهم بسياسات دولهم، وقد يكون منهم من هو معارض لها، بل حتى متعاطف مع القضية التي يدعي الإرهابيون على أنهم يمثلونها.

أجرت الكاتب عمله في بحث مغزى الأذى العرضي ومكانه في الثقافة الغربية، والمشاكل المرتبطة بهذا الجانب من الحروب. وقد قسم عمله إلى الأجزاء أو الفصول التالية: ضرب ثالث من الموت، الأذى العرضي ومسألة المسؤولية